

المفهوم في البحث الإجتماعي : من التعريف المؤقت إلى التعريف الإجرائي

إعداد : د. عثمان فكار

أستاذ محاضر - أ - قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

بكلية الآداب والعلوم الإجتماعية

جامعة سعد دحلب البليدة

ملخص :

سنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى أهمية المفهوم من حيث كونه يمثل أحد العناصر الأساسية في بناء موضوع البحث ونموذجه التحليلي، كما تمثل الصياغة الإجرائية له أحد الإجراءات التي تسهل عملية التحقيق الإمبريقي كما يتوقف على عملية إختيار الأبعاد والتوفيق بين مؤشراتته و نتائج البحث.

Résumé :

Le concept en tant qu'outil fournit non seulement un point de départ en recherche sociologique mais également un moyen de désigner par abstraction d'imaginer ce qui n'est pas directement perceptible pour lutter contre l'ambiguïté et la manière de le construire rigoureusement passe par ce que « Lazarsfeld » appelle les étapes de l'opérationnalisation du concept sujet de notre article.

مقدمة :

تمثل الظواهر الإجتماعية مواضيع بحث تثير تساؤلات الباحث ورغبته في محاولة فهمها واكتشاف العوامل المؤدية إليها، تقوم عملية البحث الإجتماعي على مراحل منهجية يسعى من خلالها الباحث إلى فهم هذه الظواهر أو تفسير جانب من جوانبها، ويتم ذلك من خلال تحويلها من ظواهر معطاة إلى ظواهر بحث مبنية على طرح إشكالي وتساؤلات محددة يسعى الإجابة عليها ضمن أهداف البحث.

من بين الإجراءات التي يستند إليها هذا البناء صياغة المفاهيم، تمثل هذه الأخيرة إجراءً منهجياً غير منفصل عن باقي الإجراءات المنهجية الأخرى، كما تمثل مرحلة حاسمة، إذ بواسطتها يتم الانتقال من الجانب التجريدي لعملية البناء إلى الجانب الملموس، كما يتوقف عليه أيضاً مدى التحكم في الأبعاد الضمنية للواقع المدروس وكذا نتائج البحث.

سنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى مراحل بناء المفهوم، من حيث صياغته الأولية كطرح مؤقت إلى صياغته الإجرائية قابل للملاحظة والقياس، وهذا من خلال العناصر التالية:

أولاً: تعارف المفهوم: قبل عرض بعض التعارف التي تناولت معاني المفهوم ومسألة صياغته، يمكن أن نتساءل لماذا يتوجب تحديد المعنى أو المقاصد التي يرمي إليها المفهوم؟ نشير في البداية أن المفاهيم والتعبير الذي نستعمله في محاولة فهم الواقع أو تفسيره ليست واحدة، ولا يفهمها الجميع بنفس الطريقة، فتختلف باختلاف ثقافات المختصين والمتعاشين معها.

إن الباحث في العلوم الاجتماعية يصطدم للوهلة الأولى بمسألة « المعنى الموحد أو المتفق عليه » للمفهوم، فإذا كان هذا الأخير لا يطرح أي مشكلة في العلوم الأخرى (فيزياء، علوم طبيعية، رياضيات... إلخ) فلأنه يمثل الظاهرة نفسها، بينما في العلوم الاجتماعية هو تجريد لها، فلا يتحدد معناه إلا في السياق الذي يدرج فيه، من هنا جاءت مسألة تحديد عناصره البنائية وبالتالي تحويل مضمونه من مضمون نظري بحث إلى مضمون إجرائي.

لقد تعددت تعاريف المفهوم بتعدد اللغات الموظف فيها (اللغة العلمية، اللغة السوسولوجية، اللغة الأدبية... إلخ)، فمنه من عرفه بأنه وصف مختصر لواقع معين، ومنه من وصفه بالصور الذهنية لوقائع معينة أو هو تجريد لظاهرة معينة أو هو تصور عقلاي يشمل جملة من المواصفات الخاصة بشيء ما.

من هذه التعاريف يمكن أن نستنتج أن المفهوم يشير إلى مجموعة من الخصوصيات المحددة والمرتبطة بواقع معين، يتم تحديدها والتعرف عليها إنطلاقاً من تصور ذهني بعيداً عن الإلتباس والغموض، فهو بذلك يمثل بناءً فكرياً تجريبياً ورمزياً.

للمفهوم علاقة بالمتغيرات أيضاً، فكلاهما يشير إلى مظاهر معينة من الواقع، على الباحث فحص وتحديد معانيها وهذا طبقاً لهذا الواقع، فكلاهما ينطبقان عليه، فإذا كان المتغير يشير إلى الأهمية المعطاة إلى مختلف القيم والمعاني التي يأخذها الواقع مثلاً، فإن المفهوم يشير إلى الخصائص الضمنية له.

إذن تجتمع معاني المفهوم على خاصية التصور والبناء التجريدي، يتعين من خلالها تحديد مجموعة من الموصفات والخصائص المتعلقة بواقع معين محل الدراسة، هذه الموصفات تتحدد معالمها الأولى إنطلاقاً من التعريف المؤقت.

ثانياً: التعريف المؤقت للمفهوم: إن عبارة تعريف مؤقت تعني أنه لا يمكن صياغة مفهوم واضح ودقيق، إلا في نهاية البحث، أي بعد الإنتهاء من التحليل البعدي له، أي الإنتقال من مرحلة التفكير النظري التجريدي إلى الصياغة الإجرائية، وعلى هذا الأساس يأتي دور تحديد الأبعاد والمؤشرات القريبة أكثر من الواقع المحسوس، فأهمية التعريف المؤقت للمفهوم تكمن في وضع الخطوط العريضة للبحث - أي تأطيره في نطاق مجموعة من الصفات التي تشترك فيه.

كيف تتم الصياغة المؤقتة إذن؟ يقول « إميل دوركايم » في مؤلفه قواعد منهج علم الإجتماع، تتم الصياغة المؤقتة للمفهوم بأخذ مجموعة من المظاهر المعروفة مسبقاً عبر الخصائص الخارجية التي تشترك فيه أي في تمثيله، إذن يتعلق الأمر في المرحلة الأولى للبحث بأخذ مجموعة من الصفات التي هي جديرة أن تمثله، ثم تأتي مرحلة التحديد والضبط لاحقاً.

« Il faut prendre pour objet de recherche qu'un groupe de phénomènes préalablement définis par certains caractères qui leurs sont communs et comprendre dans la même recherche tous ceux qui répondent à cette même définition ».

إذن الهدف من هذا الإجراء هو تأطير المعلومات وتبديد الغموض والإلتباس، يسري معه وبالتوازي عملية بناء الموضوع لتصل إلى الصياغة النهائية للمفهوم، تؤكد على هذا المسعى « مادلين فرافيتز »: « إن عملية بناء الموضوع تمثل مرحلة حاسمة، تبدأ مع فكرة بداية البحث وتستمر مع التعريف المؤقت لتصل إلى بناء المفهوم الذي يوجه البحث.

« La construction de l'objet est un des points essentiels de la recherche elle se poursuit pendant la recherche de la définition provisoire pour aboutir à la construction du concept et guider avec lui toute la recherche .

وعلى العموم الباحث الحذر الذي يتعرض إلى تعاريف مفاهيم بحثه يكون بالضرورة مطلعاً ولما بماذا يتعلق الأمر، ولتجنب الغموض والإبهام للعبارات الموظفة في البحث يلجأ إلى إعطائه صفاتي التحديد والإجرائية، وهو ما سنتناوله في العنصر الموالي، لكن قبل ذلك ومن أجل توضيح أكثر لمسألة الصياغة المؤقتة للمفهوم « تحسين الإنتاجية » فيتبادر إلى ذهننا وللوهلة الأولى ضرورة تحديد معناه إنطلاقاً - كما أشرنا إليه سابقاً - من

تقديم تعريف مؤقت بالبحث عن المواصفات الخارجية - حسب التغيير الدوراكيمي - التي تشترك في تمثيل المفهوم، لكن هذه المواصفات يجب أن تعرف موضوعيا بعيدا عن الإنطباعات والتعاريف الشخصية ، حتى وإن كانت هذه المواصفات والخصائص قد تم التأكيد عليها في دراسات أو أبحاث أيضا.

وهكذا، ولكي يتم تقديم تعريف مقبول ، يجب مبدئيا كما تؤكد عليه مرة أخرى «مادلين ثرافيتز» على ضرورة الإطلاع على التراث العلمي (نماذج نظرية، نظريات، تعاريف دراسات سابقة... إلخ) التي تناولت المفهوم محل الدراسة من وجهات نظر ومقاربات مختلفة، لكن هذه التعاريف موجودة وهي كثيرة في التراث المعرفي أغلبها أضحى يندرج ضمن اللغة العامة والتعبير المشترك أيضا ، وعلى الباحث الإنتقال من الإطار المعرفي إلى الخصائص التي تمثل المفهوم وهذا حسب مقاصد الدراسة، فالباحث في هذه الحالة وكما أشرنا إليه سابقا يجد نفسه أمام غمرة من المظاهر التي تلتصق بالمفهوم، فما عليه إلا إجراء عملية الإنتقاء، فبالنسبة للمثال السابق «تحسين الإنتاجية» يمكن القول أن من بين المواصفات التي ترتبط به أو تمثلها هي كل ما يمثل عملية إستغلال يد عاملة مؤهلة وتسيير عقلائي للعمل وزيادة الإنتاج وجودته... إلخ، فيصبح التعريف المؤقت كما هو مقترح في المثال «تحسين الإنتاجية» هي العملية التي من خلالها يتم توفير الوسائل المادية (رؤوس الأموال اللازمة) والبشرية (يد عاملة مؤهلة) وتسيير عقلائي للعمل بهدف ضمان زيادة المنتج وجودته... إلخ، ويبقى هذا التعريف مؤقت لغرض التمهيد للبحث وتوجيهه ويتم التدقيق فيه مع مسار الصيغة النهائية والتي من خلالها يكتسي الطابع الإجرائي له.

ثالثا: التعريف الإجرائي للمفهوم: تأتي الصياغة الإجرائية للمفهوم كإجراء مكمل للعملية السابقة رغم الإنتقادات الموجهة لها من حيث كونها تحفي قيمة المفهوم وتعطيه صفة الخصوصية الإجرائية أي معنى أحادي ثابت غير متغير، علما أن المفهوم له صفة العمومية في المقام الأول أي يكتسي صفات ومعاني عدة وهو سابق لكل صيغة إجرائية خاصة، إذن تفضيل الصياغة الإجرائية للمفهوم وإهمال شروط البناء النظري له هو في الواقع إهمال الصيغة العلمية له حسب تعبير «بيار بورديو»:

« c'est la formulation de systèmes conceptuels dotés d'une pertinence théorique qui est à l'œuvre dans le progrès scientifique »

رغم هذا تبقى الصياغة الإجرائية للمفهوم كثيرة الإستعمال في البحوث الإجتماعية، فمن جهة تسمح بتجنب الإبهام الذي قد يغلب على المفهوم، ومن جهة أخرى يسمح بتحديد الجوانب التي تكتسي معنى خاصا مرتبطا بالسياق المدرج فيه، فالصياغة

الإجرائية تقدم مساعدة قيمة لقياسه كميًا أو كيفيًا أيضًا (6)، فهي من الناحية التطبيقية تعني مجموعة من العمليات التي تمثل المظاهر أو الأبعاد - حسب التعبير السوسولوجي - التي ترمي إليها في الواقع، أي إدراجه ضمن منظور خاص قائم على المعنى الذي يرمي إليه تطبيقيا، فهو بهذا المعنى يتطلب التجزئة من مواصفات إلى مظاهر ملموسة، أي سلوكات قابلة للملاحظة (7)، وإذا عدنا إلى المثال المقترح فإن المواصفات الأولى التي أدرجت في المفهوم تمهيدا لتبلور إلى أبعاد ومؤشرات ملموسة قريبة إلى المحسوس ضمن دليل يجمعها من منظور ومعنى خاص بالدراسة «تحسين الإنتاجية»، إذن يتعلق الأمر بحصر الجوانب التي تترجم وتجسد تحديدًا المفهوم، وعملا بالتحليل البعدي الذي إقترحه» بول لازارسفيلد» فإن الصياغة الإجرائية تأخذ المراحل التالية:

1. التجسيد المصور للمفهوم (la représentation imagée du concept):
يعني أن المفهوم في البداية يظهر بشكل غامض يحمل مواصفات عدة: توفير الوسائل المادية (رؤوس الأموال اللازمة) والبشرية (يد عاملة مؤهلة) وتسيير عقلائي للعمل (توفير الوقت اللازم لإنتاج وحدات مصنعة بهدف ضمان جودة المنتج... إلخ، ولهذا ينبغي تحديد المظاهر التي يجب دراستها.

2. مرحلة تخصيص المفهوم (étape de spécification): يتعلق الأمر بتحديد عناصر المفهوم والمعاني التي يحملها غنية تحمل بالتعبير السوسولوجي إسم الأبعاد يمكن حصرها احتمالا في: توفير المواد الأولية، اليد العاملة المؤهلة، ضمان زيادة الإنتاج كما وكيفيا.

3. مرحلة إيجاد مؤشرات الأبعاد (indicateurs des dimensions retenus): المؤشر هو معطى من معطيات الملاحظة يسمح بحصر الأبعاد وقياس واحد أو أكثر منها وعلى الباحث في هذه المرحلة أن ينتقي الأكثر ارتباطا بالمفهوم محل الدراسة من الأحسن يقول «لازارسفاليد» أن يتوفر لدى الباحث عدد كافي من المؤشرات حيث لا يمكن الحكم على كفاءة طبيب بعدد المرضى المعالجين، أو كفاءة مؤلف بعدد الكتب التي بيعت له في السوق فمؤشر البيع لا يدل سوى على النجاح التجاري على سبيل المثال، الكفاءة مفهوم مركب يحتوي على مؤشرات عدة.

وإذا تعلق الأمر بمفهوم موظف في دراسة كمية، فإن المشكل يكمن في إيجاد مؤشرات مبينة وفي نفس الوقت قابلة للتكميم، وإذا تعلق الأمر بمفهوم موظف في دراسة كيفية، فإنه ينبغي إيجاد مؤشرات غنية بالمعاني مقارنة مع موضوع البحث، فبالنسبة للمثال الذي أدرجناه يمكن أن نحصر مؤشرات كل بعد فيما يلي:

- بعد توفير المواد الأولية: يحتوي على مؤشر: تخزين المواد اللازمة للمنتوج، تسيير عقلائي للمخزون... إلخ
- بعد توفير اليد العاملة المؤهلة: يحتوي على مؤشر: مستوى تعليم معين (شهادات)، تجربة مهنية (مؤهلات + تكوين في منصب العمل + إجراء تربصات لمواكبة طرق العمل الحديثة)
- بعد ضمان زيادة الإنتاج كما وكيفا: يحتوي على مؤشر: إنتاج وحدات مصنعة حسب الأهداف المسطرة، برمجة ساعات إضافية للعمل لتلبية طلبات السوق، غياب دوران العمل والعطل المرضية.
- بعد ضمان زيادة الإنتاج كيفاً: يحتوي على مؤشر: ضمان جودة المنتوج في مدة إستعماله، قابلية المنتوج في المنافسة، قابلية المنتوج في تراكم رؤوس الأموال.

4. مرحلة تشكيل الأدلة (**la formation des indices**): إن الدليل ناتج عن تركيب المؤشرات ويوفق بينها ومنه يكتسي المفهوم الصياغة الإجرائية التالية: تحسين الإنتاجية هي عملية تتوقف على الجهود المبذولة من قبل المؤسسة وتتحصر في التسيير العقلائي للمواد الأولية مع ضمان يد عاملة مؤهلة وزيادة الإنتاج وجودته من حيث الإستخدام المتعدد والأطول، وفي منافسة السلع الأخرى وتراكم رؤوس الأموال... إلخ

رابعا: مصادر بناء المفهوم: تميز كتب المنهجية بين إتجاهين في بناء المفهوم: الطريقة الإستنباطية وأخرى إستقرائية، فكلاهما يقدمان العناصر البنائية للمفهوم، تأتي الصياغة الإجرائية له لاحقا، فالطريقة الإستنباطية يتم من خلالها صياغة المفهوم إنطلاقا من النظريات، النماذج النظرية (**paradigmes**) أو الدراسات العلمية السابقة التي بدورها تشكل مصدرا للبناء المفاهيمي، هذه المصادر تساعد الباحث على إستخراج المعاني التي تحتويها فمن عناصر نظرية ما يتم إستنباط الأبعاد التي يرمي إليها المفهوم فأصحاب هذا الإتجاه المفهوم يجب أن يُنظر، أي يجب أن تكون له خلفية نظرية يرتكز عليها، هذه الأخيرة تساهم في توضيح الأبعاد التي يرمي إليها المفهوم والتي تمثل مسلمات ينطلق منها في توجيه البحث، يسمى كل من فان (كمبنهودت - وكيفي **Van Quivy - Campenhoudt**) المفاهيم المستمدة من النظريات العلمية بالمفاهيم النسقية (**les concepts systémiques**)، أما الطريقة الإستقرائية فتعني أن المفهوم يستمد أصلته من الملاحظات المباشرة والمقابلات الإستكشافية، كل هذه المصادر تساهم في صياغة المفهوم، إن هذه الطريقة الإمبريقية لبناء المفهوم تعطيه صفة المفهوم الإجرائي المنعزل (**les concepts opératoires isolés**)، يؤكد الباحثان أنه بالرغم من أن

المفاهيم الإجرائية المنعزلة يصعب فصلها عن الأفكار المسبقة إلا أنها تبقى مع ذلك تحافظ بقيمة علمية مؤكدة نظرا لمساهمتها في تقدم المعرفة العلمية أيضا (8).

خاتمة:

تبين لنا من العناصر السابقة الذكر أن المفهوم يمثل عنصراً أساسياً في بناء موضوع البحث كما تساهم الصياغة المؤقتة في تحديد المظاهر والصفات التي يتجلى بها المفهوم وتوضيح أبعاد الدراسة كما تسهل العمليات الأخرى اللاحقة، تأتي الصيغة الإجرائية للمفهوم لإضفاء الطابع الإمبريقي للدراسة وتفيد عملية التحكم في مؤشرات الأبعاد في فهم الواقع وتفسيره.

قائمة المراجع:

- urice ANGERS Initiation pratique à la méthode des Science sociales Alger Ed :Casbah1997pp.109et sts.
- Madeleine GRAWITZ Méthodes des Sciences sociales,Paris Ed :10éme Edpp345-355
- Pierre ANSARD Le concept in le Dictionnaire de Sociologie Paris Ed : Seuil 1999 p100.
- Benoît Gautier, Recherche Sociale : De la Problématique à la collecte des données Québec Ed : Presse Universitaire de » Québec 1984p.67.
- Emile DURKHEIM, Les règles de la méthode Sociologique,in Madeleine GRAWITZ,p346.
- يعتقد الكثير أن الصيغة الإجرائية للمفهوم لاتصلح إلا في الدراسات الكمية في هذه الحالة ينبغي تبني متغيرات كمية يمكن قياسها، إلا أنه في الدراسات الكيفية غالبا ما يواجه الباحث فيها مشكلة الغموض أيضا التي تحيط بالمفاهيم وفي هذه الحالة يكون من المهم أن يحدد الباحث المواصفات التي يريد دراستها .
- GRAWITZOP.cit ;p. 345.
- Ibidp. 346.